

ملاً صدرا، الحكيم العارف

فاطمة مدرّسي

ترجمة طارق عسيلي

الكلمات المفتاحية: صدر الدين الشيرازي؛ الفلسفة؛ العرفان؛ العقل؛ الفكر؛ إيران.

ما الفلسفة والعرفان إلا وجهان لتجربة روحية واحدة. فكلاهما يهدف لمعرفة وكشف الحقيقة، أما اختلافهما فيتمثل بالمنهج الذي يعتمدانه للوصول إلى الحقيقة.

فالمنهج الذي تعتمده الفلسفة هو المنهج العقلي، وأداته الفكر، بينما يعتمد العرفان تركية النفس والرياضة الروحية كمنهج للوصول إلى الحقيقة.

منذ القدم ارتبط العرفان والفلسفة في إيران، ويمكن أن نلاحظ النزعة العرفانية في أقدم الكتابات الزرادشتية (المزدكية). وترتكز الحكمة الإيرانية الفهلوية على الوحدة. وبمعزل عن الفكر والتعقل، لم ينس الفلاسفة الإيرانيون العلم الحضوري وقد اعتبروا المسألة مهمة صعبة، وكانوا حذرين جداً من الوقوع في الخطأ. وكحلّ - كما فعل حافظ - سعوا للحصول على مساعدة العرفاء وسألوا أطباء العشق عن صفات "علاج عقلي يصفي الذهن ويهب السكينة"⁽¹⁾. في أفكار وتصوّرات فلاسفتنا - من ابن سينا العقليّ الواسع المعرفة، إلى أكثرهم عرفاناً - يبدو دور أفلاطون واضحاً، حتى في كتابات فلاسفتنا الإستطرايين يمكن أن نرى بصمات الإشراق والإلهام ونشتّم رائحة العرفان⁽²⁾. لهذا أدّى ملاً صدرا - الشخصية البارزة في مدرسة أصفهان - دوراً مهماً في تطوير الفلسفة الإسلامية، وكان كالسهروردي يرى أنّ الحكيم المتعالي هو الذي حصل المعرفة النظرية والتجربة العرفانية معاً.

هذا الحكيم الشهير - الذي لم تكن تجاربه العرفانية وسلوكه الزهدي بعيداً بأيّ شكل عن الأفكار الفلسفية - ألّف بين حقلي الفلسفة والعرفان في حكمته المتعالية، حيث قدّم بلغة فلسفية التعاليم الحكيمية، والحقائق الكشفية، والكشوفات الصوفية وصاغها على شكل حكمة نظرية.

فهو يقول: "أقدم الدليل الفلسفيّ إلى جانب الكشف الصوفي"⁽³⁾.

سنحاول في هذه المقالة الإضاءة على أفكار ملاً صدرا الصوفية وعلى أهمّ أفكاره الميتافيزيقية.

ولد ملاً صدرا في شيراز في أواخر القرن العاشر هـ.ق.، وفي شبابه وبسبب اهتمامه الكبير بالبحث عن الحقيقة والعرفان سافر إلى أصفهان، وفيها درس الحكمة والعلوم النظرية والفلسفة على يد محمد باقر المعروف بالميرداماد والذي كان له تأثير روحي كبير عليه. وكذلك درس الفقه والحديث وعلم الرجال على يد الشيخ بهاء الدين العاملي.

كان تلميذاً لميرفندرسكي الذي كان ينشط في ترجمة الكتب من السنسكريتية إلى الفارسية في أثناء حكم شاه أكبر (ملك الهند)، ولم يمض وقت طويل حتى برز ملاً صدرا وفاق أقرانه من الطلاب في العلوم النقلية والعقلية والحكمة والعرفان، واشتهر بين العلماء. بعد ذلك، وبسبب الجو المعارض في ذلك الزمن الذي عارض فيه معاصروه من العلماء أفكاره، أُجبر على ترك أصفهان إلى كهك، كما يصف الأمر في مقدمة الأسفار:

[...] فلما رأيت الحال على هذا المنوال من خلوة الديار عمّن يعرف قدر الأسرار وعلوم الأحرار وأنه قد اندرس العلم وأسراره وانطمس الحق وأنواره، وضاعت السير العادلة وشاعت الآراء الباطلة، ولقد أصبح عين ماء الحيوان غائرة، وظلت تجارة أهلها بائرة، وآبت وجوههم بعد نضارتها باسرة وآلت حال صفقتهم خاسرة، ضربت عن أبناء الزمان صفحاً وطويت عنهم كشحاً، فأجأني خموض الفطنة وجمود الطبيعة، لمعاداة الزمان، وعدم مساعدة الدورات إلى أن انزويت في بعض نواحي الديار [...] ⁽⁴⁾.

بعد فترة، دعاه الشاه عباس الثاني فعاد إلى شيراز وبدأ يدرس الفلسفة والعرفان في المدرسة التي شيدها حاكم شيراز (عملاء وردى خان)، وقد خرّجت مدرسته عدداً لا بأس به من مشاهير العرفاء كالملا محسن (الفيض الكاشاني)، وعبد الرزاق اللاهيجي.

كان حبه لله عظيماً، وقد قصد مكة للحج سبع مرّات، وقد توفّي سنة 1050 هـ في البصرة أثناء رحلته الأخيرة للحج ودفن فيها.

ترك ملاً صدرا عدداً من المؤلفات النفيسة، انعكس فيها سمو فكره. نذكر منها الشواهد الربوبية في المناهج السلوكية، كسر أصنام الجاهلية، المبدأ والمعاد، مفاتيح الغيب، المسائل القدسية، القواعد الملكوتية، الحكمة العرشية، إكسير العارفين في معرفة الحق واليقين، اتّصاف الماهية بالوجود، أسرار الآيات وأنوار البيّنات، الإمامة، اتّحاد العاقل والمعقول، حاشية إلهيات الشفاء، تجريد الخواجة، تعليق على تفسير البيضاوي، حاشية على الرواشح السماوية للميرداماد، روضة الشهيد، شرح حكمة الإشراف للسهروردي، شرح الهداية الأثيرية لأثير الدين الأبهري، شرح أصول الكافي للكليني، تفسير

القرآن الكريم ويشتمل على تفسير جملة من السور والآيات حاول من خلالها تبيان المعاني العرفانية للكلمات الربانية، وكتابه الشهير المعروف بالحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة الذي كتبت عليه مجموعة من الحواشي والتعليقات من قبل مجموعة من الأعلام والشرّاح.

ولا بدّ من ذكر أنّ ملاً صدرا كان ضليعاً في الحكمة الإيرانية القديمة التي قال فيها شهيد طريق العشق والحريّة السهروردي: "حكمتي الإشراقية ليست سوى حكمة إيران القديمة، التي تركز على القول أنّ الحكمة كالنور، والنور يُرى بمراتبه المختلفة في جميع أنحاء الوجود" (5).

كان الملاً صدرا ملماً بأفكار السهروردي وابن سينا، لذا حاول في الكثير من المسائل أن يكمل ما بدأه السهروردي، هذا بالإضافة لافتتانه بكتابات ابن عربي وعرفانه النظري، ويبدو تأثر صدرا بأفكار ابن عربي واضحاً.

لقد وُلّف فيلسوف الحكمة المتعالية بين الحكمة المشائية والحكمة الإشراقية وعرفان ابن عربي النظريّ والشريعة والسنة النبويّة والحكمة القرآنيّة. وكان قادراً على ابتكار مدرسة عرفانية وفلسفيّة خاصّة ذات أهميّة عالية من وجهة نظر فلسفيّة وعقليّة وكلامية.

يمكن الحديث عن فلسفة ملاً صدرا كنوع من الحكمة الإلهية التي تختلف عمّا يعنيه الأوروبيون باللاهوت، أو يسمّونه فلسفة". "والحكمة الإلهية" يقابلها حرفياً كلمة ثيوصوفيا "Theosophia" (6). وبما أنّ مدرسته الفكرية تحوي مسائل ترتبط بالحكمة الإلهية أكثر من ارتباطها بالفلسفة، فقد سمّاها ملاً صدرا بالحكمة المتعالية، وهو يعني بهذه التسمية النظام المعرفي المنظم الذي ازدهر داخل حدود الحضارة الإسلاميّة الفتيّة. وساد بين من آمنوا بالقرآن الكريم والوحي النبويّ.

وفي ضوء أفكاره الإبداعية، كان مفكراً ومتنوّراً العظيم قادراً على إحداث ثورة في متافيزيقا الوجود. بإعطائه الأولوية والأصالة للوجود على الماهية.

يعتقد ملاً صدرا — بخلاف ابن سينا والسهروردي — بأصالة الوجود واعتبارية الماهية. وهو يؤكّد على تقدّم الوجود على الماهية ويرفض الفكرة المشائية القائلة بعدم تغيير الماهية. ويقول إنّ الماهية متعلّقة بفعل الوجود وهي بهذا تتغيّر إلى أبعد مدى. ما يعني أنّ النفوس تقوى وتضعف وأنّ الإنسانية تزيد وتقلّ بحسب اختلاف الأشخاص.

في فلسفة ملاً صدرا الوجودية، الموجود - كالإنسان - يمرّ بمراحل وجودية مختلفة تبدأ بالمرتبة الشيطانية وصولاً إلى أعلى المراتب الإنسانية⁽⁷⁾. كما يمرّ الجسم البشريّ بمراتب عدّة من مرتبة الجسم المادّيّ الزائل إلى مرتبة الجسم المثاليّ أو البرزخيّ وحتىّ إلى مرتبة الجسم الروحيّ. والوجود الإلهيّ فقط لا ماهية له؛ لأنّه "لا يمكن تصوّر أتمّ وأكمل من الوجود الصّرف"⁽⁸⁾.

تختلف آراء مفكّر العالم الإسلاميّ البارز حول وحدة الوجود، وهي من المسائل المهمّة في تصوّف والعرفان، عن آراء غيره من العرفاء؛ إذ أنّه يؤمن بوحدة الوجود وكثرتّه معاً، وكذلك يعتقد أنّ الوجود حقيقة واحدة ذات مراتب مشكّكة في عين وحدتها. وكثرة الوجود تعني أنّ للوجود مراتب مختلفة هي فيوضات الباري الواجب الوجود والوجود عبارة عن بحر بلا حدود وما المخلوقات إلّا أمواج ذاك البحر. وتلك الأمواج هي البحر نفسه وهي في نفس الوقت موجودات تختلف عن البحر. فهناك وحدة في الوجود وكثرة في الموجودات.

يعتقد العرفاء بوحدة حقيقة الوجود، المنزّهة عن أيّ كثرة. وفي الواقع، ليس لتعيّنات وكائنات العالم المرئيّ والعالم غير المرئيّ أيّ وجود فهي كشعاع نور وفيوضات الله تعالى. وهذا الوجود الحقيقيّ لا يقبل المراتب إلّا بالتحليّ.

ورغم تقدير بعض العرفاء نظريّة ملاً صدرا في تشكيل العرفان النظريّ وتقديمه الحقائق العرفانية بلغة فلسفية، فإنّهم يفضّلون نظريّته في وحدة الوجود الشخصية⁽⁹⁾.

يقبل ملاً صدرا نظريّة الحركة الجوهرية التي على أساسها ستزول كلّ أنواع الحدود، وحاول تقديمها على ضوء تعاليم العرفاء السابقين. وبحسب هذه النظريّة، للوجود نوع من الحركة، ما يعني أنّ الوجود يتنزّل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة على شكل قوس، ولكنّ رغبة العودة إلى الخلود تشتعل بكلّ كيانها مسببة الآهات والحسرات شوقاً للقائه.

منذ أن فارقت مهد القصب

كان عويلي سبباً لأنّات الرجال والنساء

كلّ من يُعد عن مصدره

يتميّ أن يعود به الزمن للقائه⁽¹⁰⁾.

لهذا عندما تبدأ الماهيّة، التي اعتقد حتى ذلك العصر أنّها لا تتغيّر، بالتغيّر، للوهلة الأولى، لا يبدو أنّ وجود الجسد محدود بوحدة في المرتبة الحسيّة. فهو يخضع لتغيّرات متعاقبة من مرتبته النوعيّة إلى مرتبته العقليّة التي يقدر فيها أن يفهم الحقائق الروحيّة. حتى المادّة ليست نفس المادّة الحسيّة، فهي تمرّ بحالات لا متناهية. أوّلاً بمرتبته ثمّ تصبح متساميةً، وأخيراً تصل إلى مرتبة الجسد الروحيّ القدسي⁽¹¹⁾.

وللنفس تاريخها المتأفريقيّ. فمن وقت نزولها إلى عالم المادّة حتى وقت وصولها إلى عالم الملكوت تخضع لعدّة تغيّرات كما يقول جلال الدين الرومي الشاعر والعارف الشهير:

تحوّلت إلى نبتة من جسم لا حياة فيه

وتحوّلت من نبات إلى حيوان

وتحوّلت من حيوان إلى إنسان

فلم أخف الموت، طالما أنّي لا أخسر شيئاً بالموت؟

وبعدها سأترك جسدي البشريّ

وسأكون بين الملائكة

ثمّ أترك هذا الطور أيضاً

فكلّ شيء هالك إلا الله

وعندما أترك طور وجودي الملائكيّ وأصبح أقرب إلى الله

عندها سأصبح شيئاً لا يمكن حتى تصوّره⁽¹²⁾

وبهذه الطريقة يكون ملاً صدرا والرومي من الرأي القائل: أنّ في الوجود الإنسانيّ فقط يمكن أن يتحوّل

الجسم إلى روح.

"عندما أصبح ذاك الطعم وجبة للإنسان"

تحول من ميت إلى حي" (13)

وهكذا فهو يقول: إنَّ النفس بحسب قابليَّاتها (القوَّة الموجودة فيها) تصنع جسداً ملكوتيّاً، لطيفاً ومستقلاً عن الجسم المادّي، وهذا الجسد سيصل إلى قمة تطوره؛ لأنّه ينبغي أن يكون مع النفس حتى بعد الموت.

ولا يعتبر ملاً صدرا أيّ سبب آخر للحركة الجوهرية، التي تشكّل الصفة الأساسية للمادة، ولكنّ العرفاء والصوفيّين يعتقدون أنّ ركيزة الخلق هي العشق وأنّ الحركة في كلّ الوجود مرتكزة على قوّة العشق، الذي لا يميز بين الخاصّ والعامّ، والكبير والصغير.

هناك رغبة في كلّ جزئيّ متحرّك بثبات، يشدّ الجزئيّ إلى مصيره الخاصّ. فإذا انتقلت من النقطة السفلى إلى النقطة الأعلى (من جهنّم إلى الجنّة) لن تجد جزئيّاً غير محكوم لتلك الرغبة، الرغبة إذا كنت تدري هي تلك الرغبة، وهي ما يمكن أن تجده في كلّ مكان وفي كلّ شيء. وهي تسبّب كلّ حركة، سواء كانت في جسم أرضيّ أو ملكوتيّ⁽¹⁴⁾.

بحسب هرم الوجود، يضع ملاً صدرا العشق في سلسلة طولية وينتقد نظرية ابن سينا حول العشق التي ترى أنّ العشق حقيقة تسري في جميع الموجودات - سواء كانت بسيطة أم مركّبة - وهو وسيلة لبلوغ الكمال⁽¹⁵⁾.

هناك مسألة يأخذها ملاً صدرا بحسابه؛ لأنّه يعتقد أنّ الجزء الأكبر من المعرفة يرتكز عليها، وهي اتّحاد العاقل والمعقول، وهي من أهمّ المسائل في فلسفته. إنّه لا يبرهن على اتّحاد العاقل والمعقول على المستويات العليا، أو المجرّدات والنفوس العاقلة فحسب، ولكنّه يوسعها لتشمل اتّحاد العالم والمعلوم، والحاسّ والمحسوس.

المراد من صورة الشيء عندنا هو وجود ذلك لا المفهوم الكلّيّ منه، فالصورة لكلّ شيء لا تكون إلاّ واحدةً بسيطةً لكن قد تكون مصداقاً لمعان كثيرة كمالية وقد لا تكون كذلك، كما أنّه قد يكون وجوداً قويّاً شديداً وقد يكون وجوداً ضعيفاً ناقصاً، فالنفس إذا قويت تصير مصداقاً لمعان كثيرة⁽¹⁶⁾.

ويقول:

إنّ كلّ صورة إدراكيّة - سواء كانت معقولة أو محسوسة - فهي متّحدة الوجود مع وجود مدرّكها ببرهان فائض علينا من عند الله، وهو أنّ كلّ صورة إدراكيّة، ولتكن عقليّة، وجودها في نفسها ومعقوليتها ووجودها لعاقلها شيء واحد بلا تغيّر (17).

لمفهوم العاقل والمعقول علاقة قريبة بالحركة الجوهرية؛ لأنّ النفس في بداية تعلقها بالجسد تكون مادّية. ثمّ في سفرها الروحيّ بالحركة الجوهرية، تحصل النفس على كمالها الروحيّ وتنفصل عن المادّة وتدرّجياً في عمليّة التعقّل تترقى في المراتب وتدمج نفسها بالعقل وروح القدس في عالم المثل ثمّ تعود إلى العالم العقليّ "العالم الذي توجد فيه صور كل الكائنات العقليّة والصور العقليّة للموجودات المادّية" (18).

يسمّى عالم النفس السماويّ - الموجود بين عالم الحسّ وعالم العقل الذي تظهر فيه الجواهر والأعراض المادّية والمجرّدة في صورة مثاليّة محضّة - "الوجود العقليّ أو عالم المثل" (19)، وقد سمّى قدماء الإيرانيين في كتابهم المقدّس ذلك العالم بأرض فارجام وسمّاه الزرادشتيون "خورنه"، وسمّى أيضاً بعالم المثل والصور الممتدّة، وعالم الخيال والمثال، والأجسام النجميّة، وعالم البرزخ والعالم الثامن. وفي سيكولوجيا يونغ Young يشبّه هذا العالم مرتبة اللاوعي في الذهن التي تألّف المخزون اللاوعي للفرد.

سمّيت الصور المختلفة لعالم المثل - التي لا تتصل بالمادّة - بالصور المعلقة. من ناحية أخرى وبما أنّ هذه الصور تشبه الصور الخياليّة من حيث أنّها عرضيّة ولكنّها غير متعلّقة بالمادّة فقد أطلق عليها اسم الصور الخياليّة.

ويعتقد الملامّ صدرًا أنّ عناصر إدراك الصور المثاليّة هذه لطيفة وموجودة بذاتها، وأنّها لا تزول بزوال البدن. وحسب رأيه فهو يسمّيها بالخيال الفعّال، ويمكن لهذا الخيال الفعّال أن يعطي النفس بعض القدرة من خلال فتحه لفضاء خاصّ وتمكينها من رؤية العالم الآخر بطريقة تمكّنها من رؤية الأحداث التي تساوي بواقعيتها وجود المحسوسات.

يقول كوربان: "بالنسبة لملامّ صدرًا هذه القدرة التخيليّة للنفس المتعلّقة برؤية العالم الآخر تلعب دوراً مهمّاً؛ لأنّها تشير لتخيّل العالم الآخر للذهن الذي يعتمد على نظريّة التخيّل منذ البداية".

وفيما يتعلّق بكلمات السهروردي بحقيقة أنّ "النفوس قادرة على خلق صور عامّة"، يقول صدرًا: إنّ كلّ من يمكنه فهم هذه المسألة بشكل صحيح وحقيقيّ يمكنه أن يفهم المعاد الجسمانيّ.

ما يُفَعِّل الخيال ويمنحه القدرة والنوريّة هو ذكر الله والابتهاال إليه؛ حيث يمكن للخيال أن يصل إلى مرتبة من الوجود ويتحوّل إلى جهاز يمكنه إدراك الصور المختلفة والتجليّات الإلهيّة والعالم الروحيّ، فالعقل الفعّال أو ملك الحكمة يمكنه أن يساعد السالك الذي ينشد الحكمة على الأرض. وذكر الله يمرّ من العالم الجسمانيّ إلى عالم المثال. كان السهوردي أوّل من أشار إلى عالم المثال. وكان الفلاسفة والحكماء قبله قد ذكروا ثلاث عوالم: عالم الغيب، وعالم الشهادة، والعالم الأصغر (الإنسان).

علينا أن نذكر عند الإشارة المباشرة إلى علام المثال، أنّ العرفاء أيضًا تكلموا عن التجارب الصوفيّة وعن حالات وقعت لهم بينما كانوا يجتازون حدود العالم المادّيّ والرغبات الدنيويّة في سلوكهم المعنويّ وعند دخولهم عالم الغيب من خلال تفكّرهم بالكائنات اللطيفة. تعتبر النفس الناطقة المدرك لهذه الحالات، والإدراك موجود بالقوّة ويصبح فعليًا من خلال تطهير النفس وتنقيتها وبالعون والمنّ الإلهيّين، وهذا ما يشار إليه بـ "عين القلب"، والقلب، والعين الباطنيّة، ونفاذ البصيرة" (20).

مرتبة العارف في هذا العالم المتنافيزيقيّ يتعلّق بمدى ابتعاده عن العالم المادّيّ، فالبقدر الذي يتخلّى فيه من التعلّقات المادّيّة بقدر ما يزداد وجوده قوّة في عالم النفس والحضور (21) "موتوا قبل أن تموتوا".

"مبارك هو من يموت قبل موته الطبيعي"

فقد قدر على حيازة الذهب الحقيقي" (22)

يريد العرفاء الطهارة للقلب ويريدون تصفيته من صدأ الدنيا، حتّى يصبح كالمرآة ولهذا يؤكّدون

"ألم تعرف لماذا لم تعكس مرآتك (نفسك) شيئًا؟"

لأنّ الصدأ ما زال يغطّي وجهها" (23)

عندما يصبح القلب - عنصر الكشف والتفكير - صافيًا وبراقًا، يمكنه أن يرى التجليّات الإلهيّة، والصور الروحيّة بحسب قابليّاته وبحسب انفصاله عن ملاذ الدنيا. وعلينا أن نلاحظ أنّ هكذا تجليّات ليست مباشرة، لكنّها من وراء الأشياء؛ لأنّه إذا تجلّى الله بشكل كامل فسيجعل طوى دكًا ويجرّ موسى صعفًا. فلما {تجلّى ربّه للجبل جعله دكًا وخرّ موسى صعفًا} (24).

ومن الضروريّ هنا أن نستمع للكلمات الجوهرية التي قالها محمد الغزالي - الذي يجمع معه كلّ السالكين في سبيل الله - عن القلب:

في كلّ مرّة نتحدّث عن القلب، إحذر فإننا نتكلّم عن حقيقة الإنسان التي تسمّى أحياناً بالروح وأحياناً بالنفس، ولا نعني تلك القطعة من اللحم الموجودة في الجانب الأيسر من صدر الإنسان؛ إذ أنّها لا قيمة لها. فكلّ الدواب لهم مثلها، والجسد الميت له مثلها كذلك⁽²⁵⁾.

ولكن الحديث عن السلوك الروحيّ دون الإشارة إلى الهداية ناقص، وهناك خطورة أيضاً من الضلال؛ لأنّ لكلّ طريق مرشده، خاصّة طريق العشق الذي هو الطريق الأصعب، وبالتالي يترتّب عليه الكثير من النتائج. وكما ذكرنا سابقاً، في حكمة صدر المتعالية دليل السالك هو العقل الفعّال. الذي يرشد الحكيم في سلوكه الروحيّ إلى عالم المثال ويريه الصور اللطيفة.

ففي فلسفة ابن سينا الإشراقية، المرشد ملاك يلتقيه السالك في نومه أو في يقظته ويمكن أن يسمع منه كلّ الأسرار الباطنية. وفي المثل الصوفيّ هذا الملاك هو التوأم السماويّ لكلّ سالك (الخمرة) في عالم النفس الذي يجعل سالك طريق الحقيقة واعياً لموطنه الأصليّ، ويساعده على عزل ذاته عن عالم الأجسام ويصعد في عالم الروح، ويبلغ نفسه وكيانه الحقيقيّ. وفي التعاليم الدينية يكون ملاك جبرائيل أو الروح القدس ويكون الأنبياء على اتّصال معه في خيالهم ويتلقّون الوحي من خلاله⁽²⁶⁾.

في الحركة الصعوديّة والحركة الجوهرية للمادّة من الحالة الجماديّة إلى أعلى مراتب الإنسان. يعتقد الملائ صدرا بثلاثة أنواع من المعاد/ البعث. فهو يعتقد أنّ ولادة الإنسان الأوّل في الدنيا هي واقعاً بعثه في عالم الحسن. ويحصل البعث الثاني بعد مغادرته عالم الأجسام ودخوله في عالم النفس وهذا هو عالم البرزخ. ويسمّى البعث الثاني هذا "بالمعاد الصغير"، ولكنّ المعاد الثالث هو المعاد الأكبر ويكون بانتقال النفس باتجاه عالم العقل أو بكلمات كوربان "المرور من عالم الجسم والنفس إلى عالم خلود الروح"⁽²⁷⁾. وفي المعاد الأكبر يمكن للجسم الآخريّ أن يصل إلى مرتبة الجسم الروحيّ. ويمكننا مقارنة عوالم الملائ صدرا الثلاثة هذه بعوالم الجسم، والعقل والروح عند غيره من العرفاء.

وأخيراً نلاحظ أنّ ملا صدرا يرى أنّه لكي نفهم حقيقة الوجود بمعزل على التعقّل الذهنيّ أن نستعين بمجاهدة النفس الباطنيّ و التجربة الباطنية والكشف الصوفيّ ويقول في شرح أصول الكافي:

الأفضل للسالك في طريق الحقّ تعالى أن يجمع بين الطريقتين، والأفضل إذا كان صفاءه الداخليّ أن ينعم بالتعقّل وتعقّله وفكره الفلسفيّ يستكملان بمحاولة تطهير النفس. وهذا بالضبط ما يؤكّد عليه السهروردي في مقدّمة حكمة الإشراق⁽²⁸⁾.

وبرأيه لكي تفهم حقيقة الوجود لا يكفي الاعتماد على البرهان والقياس العقليّ، واستثناء الرياضة النفسية، ومجاهدة النفس والإشراق الباطنيّ.

من الضروريّ انتقال حذاء الفكر والعقل للوصول إلى مرحلة الحضور؛ لأنّ هذا الحذاء هو أحد أهمّ لوازم السالك وهو يحتاجه. ولكن عندما يصل إلى الوادي المقدّس يفعل ما فعله موسى عليه السلام يخلع نعليه؛ لأنّه في مرتبة الوحدة يكون العقل بؤابًا والعشق يكون سلطانًا. فبدل انتعال هذا الحذاء ينبغي أن يكون بكلّ نفسه وروحه كي يرى تجلّيات وأنوار المعشوق. {اخلع نعليك إنّك في الوادي المقدّس طوى} ⁽²⁹⁾.

كتب ملاً صدرا في مقدّمة الأسفار:

اشتعلت نفسي لطول المجاهدات اشتعالاً نورياً والتهب قلبي لكثرة الرياضات التهاّباً قويّاً ففاضت عليها أنوار الملكوت وحلّت بها خبايا الجبروت ولحقتها الأضواء الأحديّة وتداركتها الألفاظ الإلهية، فاطّلت على أسرار لم أكن اطلّعت عليها حتّى الآن، وانكشفت لي رموز لم تكن منكشفةً هذا الانكشاف من البرهان، بل كلّ ما علمته من قبل بالبرهان، عاينته مع زوائد بالشهود والعيان من الأسرار الإلهية⁽³⁰⁾.

تشير كتابات الحكيم ملاً صدرا أنّه كان ملماً بالأفكار الصوفيّة، وكان على علاقة حميمة والعقيدات الروحية، وبحسب رأيه، "ليست الفلسفة سوى مقارنة روحية للوجود"⁽³¹⁾.

المراجع والمصادر:

1. عليّ أصغر ديبج، فخر الرازي، (طهران: طارحي إناو، 1374)، الصفحة 170.
2. المصدر نفسه، الصفحة 170.
3. مقتبس من قاموس المعين الفارسيّ، صدر الدين الشيرازي.
4. الأسفار العقلية الأربعة، الجزء الأوّل من السفر الأوّل، الطبعة 3، (بيروت: 1981)، الصفحة 6.
5. فخر الرازي، الصفحة 170.
6. داريوش شايغان ، هنري كوربان، عن الإسلام الإيراني، ترجمة بارهام، آفاق الفكر الروحيّ في إيران الإسلامية، (طهران: المطبوعات الثقافية والعلمية، 1373)، الصفحة 459.
7. المصدر نفسه، الصفحة 239.
8. المصدر نفسه، الصفحة 240.
9. لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع ل: سيّد يحيى يثري، العرفان النظريّ، (قم: مكتب النشر الإسلاميّ، الحوزة العلمية في قم، 1374)، الصفحة 194.
10. مثنوي مولوي، الكتاب الأوّل.
11. هنري كوربان، آفاق الفكر الروحيّ في إيران الإسلامية، الصفحة 244.
12. مثنوي مولوي، الكتاب الثالث.
13. مثنوي مولوي، الكتاب الثالث.

-
14. واحشي بافكي، الأعمال الشعرية، فرهاد وشيرين، الصفحة 462، مقتبس من العرفان النظري، الصفحة 424.
15. العرفان النظري، الصفحة 424.
16. ملاً صدرا، الأسفار الأربعة، الطبعة الأولى، (طهران: 1982)، الجزء 1، الصفحة 314.
17. المشاعر، سيّد جعفر سجّادي، قاموس العلوم العقلية، الجمعية الإسلامية للحكمة والفلسفة في إيران، تحت عنوان العاقل والمعقول، (طهران: 1361)، الصفحة 122.
18. هنري كوربان، آفاق الفكر الروحي في إيران الإسلامية، الصفحة 224.
19. لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع ل محمد تقي مصباح اليزدي، أموزيس إي فلسفة، الجزء 2 (النشر الإسلامي، 1372)، الصفحتان 19 و 135.
20. تقي بور نامداران، (المطبوعات الثقافية والعلمية، 1364)، الصفحة 214.
21. روزان فر، بديع الزمان، (منشورات أمير كبير، 1370)، الصفحة 116.
22. مثنوي مولوي، الكتاب الرابع.
23. المصدر نفسه.
24. سورة الأعراف، الآية 143.
25. د. تجليل، د. حكيمي، د. ردمنيش، د. شيخ الإسلام، د. مرزيان رد، نصوص مختارة من الأدب الفارسي، المطبوعات الجامعية 1375، الصفحة 14.
26. لمزيد من المعلومات يمكن مراجعة هنري كوربان، الأرض السماوية، ترجمة د. هشيري سيّد ضياء الدين، (منشورات طاهري، 1374)، الصفحة 165.
27. هنري كوربان، آفاق الفكر الروحي في إيران الإسلامية، الصفحة 264.
28. المصدر نفسه، الصفحة 233.
29. سورة طه، الآية 12.
30. مقتبس من هنري كوربان، آفاق الفكر الروحي في إيران الإسلامية، الصفحة 233، أنظر الأسفار الأربعة، الجزء الأول من السفر الأول، الصفحة 8.
31. هنري كوربان، آفاق الفكر الروحي في إيران الإسلامية، الصفحة 266.

